تقديم: مهند مصطفى

مقالة زئيف جابوتنسكي «رأي خاص» التي يعارض فيها فكرة إقامة الجامعة العبرية

مدخل

شكلت فكرة تأسيس جامعة يهودية في فلسطين الانتدابية مجال نقاش كبير داخل المجتمع الاستيطاني اليهودي وبين تيارات مختلفة داخل الحركة الصهيونية. وقد دار النقاش حول قضايا مختلفة، منها العلاقة بين الجامعة وبين المشروع الصهيوني في فلسطين، وتمحور حول السؤال: هل يجب أن تكون الجامعة جزءًا من هذا المشروع، أم مؤسسة أكاديمية مستقلة عنه؟.

كما طرحت مسألة الحركة الأكاديمية والبحثية، داخل الجامعة، علاوة على النقاش حول دور الجامعة المجتمعي، وتمحور السؤال في هذا الإطار حول: هل يجب أن تتمحور وظيفة الجامعة في تأهيل الطلاب للمهن والوظائف الضرورية لسد الحاجات الاجتماعية والسياسية للمجتمع اليهودي الاستيطاني، أم عليها أن تركز على البحث والإنتاج المعرفي؟. قد يبدو لأول وهلة أن هذه الأسئلة واضحة الإجابة في تلك الفترة، إلا أن ذلك كان محل نقاش سياسي وفكري عميق، وكان لذلك انعكاسات على مكانة الجامعة وتمويلها والإنفاق عليها.

كان هنالك توجهان يتصارعان موضوع إقامة جامعة عبرية في فلسطين، ويعبر هذان التوجهات أيضا عن توجهين نظريين في دراسة الاكاديميا عموما والجامعات خصوصا، نظّر التوجه الأول إلى الجامعة على أنها جامعة عالمية، عليها أن تكون جزءًا من عملية التنافس العالمي على إنتاج المعرفة، واعتبروا أن الجامعة العبرية المزمع إقامتها في فلسطين عليها أن تكون جامعة لكل الشعب اليهودي في العالم، وليس فقط لليهود في فلسطين، وعليها أن تمثل إشعاعا فكريا للثقافة اليهودية والمعرفة اليهودية في العالم. أما التوجه الثاني فاعتبر أن على الجامعة أن تخدم الأهداف السياسية للمجتمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين،

صورة ارشيفية للاحتفال بوضع حجر الأساس للجامعة العبرية.

من خلال إثراء رموزه الوطنية مثل الزراعة والاستيطان، بمعنى أن على الجامعة أن تكون جزءًا من المشروع السياسي القومي.

في المجمل، مثلت الجامعة والطاقم الأكاديمي والإداري فيها التوجه الأول، حيث أرادوا للجامعة أن تكون مركزا فكريا يهوديا، بينما مثل التوجه الثاني المجتمع الاستيطاني اليهودي والحركة الصهيونية التي أرادت منها أن تكون أداة من أدوات المشروع السياسي، وكانت حركة العمل الصهيونية برموزها، مثل الزراعة والاستيطان تمثل التوجه الثاني وتقوده، وهو ما عرف بصراع «الجبل والغور»، الجبل الذي تمثله الجامعة العبرية، والغور أو السهل الذي تمثله الحركة الصهيونية برموزها في ذلك الوقت.

بدأت الجامعة العبرية مشوارها كإطار لمجموعة من مراكز الأبحاث، وليس كجامعة تقليدية مع كليات وطلاب، وطاقم محاضرين. وقد أثار ذلك معارضة كبيرة داخل الحركة الصهيونية، ومن بين المعارضين رئيف جابوتنسكي، الذي عارض إقامة الجامعة على هذا النمط.

تنبع معارضة جابوتنسكي من من تخوفه أن تكون الجامعة العبرية مركزا روحانيا يهوديا، على غرار الصهيونية الروحانية التي نظر لها «آحاد هعام»، وليس جزءًا من الصهيونية السياسية الفاعلة على الأرض. أراد لها جابوتنسكي أن تكون مؤسسة تعليم عال تؤهل النخب وأصحاب المهن الذين يمكن أن يكونوا عونا للمشروع الصهيوني. لهذا السبب اعتبر جابوتنسكي أن جامعة تعني وجود طاقم محاضرين وطلاب، وعلى المحاضرين أن يكونوا متخصصين في مجالاتهم، وان يتحدثوا اللغة العبرية. عبر جابوتنسكي عن موقفه من الجامعة في مقالة نشرها بعنوان "رأي خاص"، تمثل موقف الحركة الصهيونية التنقيحية من الجامعة العبرية في بداية طريقها.

رأيٌ خاصّ

(أ)

انتهى عيد "الجامعة"؛ أستطيع الآن أن أعبّر عن رأيي تجاهه دون أن أخفي شيئًا. هذا الرأي سلبيّ جدًا. أريد أن آمل ألاّ تكلّفنا هذه التظاهرة الاستعراضية عديمة اللياقة والمتعددة الأطراف ثمنًا غاليًا وألاّ تكون منطوية على على صدامات ومواجهات في أرض إسرائيل وألاّ تثير أصداء غير مريحة في الصحافة العالميّة؛ ولكن بدون أية علاقة بالنتائج المباشرة، تبقى مكيدة الإدارة الصهيونية مثالاً على الطيش الذي لم يسمع عن مثيل له والطيش الذي لا يُغتفر.

أضع اليوم جانبًا الخلاف حول مسألة هل يمكن ويجب البدء بتأسيس الجامعة بإقامة معاهد أبحاث. إضافة إلى ذلك أنا لا أرفض رفضًا قاطعًا الإدعاء بأن معاهد الأبحاث هي شيء مفيد. ولكن هناك أمر واضح ولا يمكن الاعتراض عليه: معهد الأبحاث ليس جامعة ولا يمكن أن يسمّى جامعة. في لندن يوجد معهد ليسترِ، فيه يعمل العلماء في مجال البحث ويتوصّلون أحيانًا إلى اكتشافات؛ ولكن لا أحد يربط بينه وبين جامعة لندن. وفي باريس يوجد معهد باستير، وهو معهد قائم بذاته وجامعة باريس هي جامعة مستقلة. حين يؤسسون معهدًا كهذا يجب أن يطلق عليه الاسم الملائم وتجب دعوة الضيوف إلى افتتاح معهد أبحاث وليس إلى افتتاح جامعة؛ فاسم الجامعة يطلق على قرية للطلاب الجامعيين وليس على مختبر للعلماء أو الخبراء؛ هكذا يفهم الجميع معنى هذا الاسم وفي كل مكان. دعوة الناس من كافة أطراف المعمورة إلى افتتاح جامعة في الوقت الذي لا توجد فيه جامعة حتى من حيث المظهر البادي للعيان، معناها تضليل

الضيوف.

في الحالة التي أمامنا يشكّل التلاعب بالكلمات لعبة ذات طابع غير مريح بدرجة كبيرة. الجامعة هي شيء كبير وثمين من جميع النواحي، في حين أن المختبرين هما أمر صغير ورخيص نسبيًّا. أنا أستخدم الكلمتين "ثمين" و"رخيص" ليس فقط في المفهوم المالي، علمًا أنه في هذا الجانب أيضًا الفرق هائل. أن نقول إنه يوجد لدينا جامعة، يعني ذلك أن نقول أن حماس المتبرعين لنا أصحاب النوايا الطيبة كافٍ لإقامة مشروع كبير؛ ولكن في الوقت الحاضر كان هذا الحماس كافيًا لإقامة مشروع صغير. ولكن من الممكن أن يكون الفرق الروحاني أكثر أهمية. من أجل إقامة جامعة وطنية جديدة هناك حاجة لعقد اجتماع لسلك المحاضرين الذين يعرفون جيدًا مجالهم العلمي وكذلك اللغة العبرية؛ يجب إعداد المصطلحات للفروع المختلفة؛ يجب حشد محفل كبير من أبناء الشبيبة المؤمنين إيمانًا كبيرًا بالعلوم العبرية واللغة العبرية لدرجة أنهم مستعدّون لتفضيل القدس على أوروبا؛ عمومًا هناك حاجة لأن نكون مشبّعين بالإيمان الذاتي لكي نجرؤ على خلق جوّ علميّ جديد في حدّ ذاته. هذه جرأة بمقياس تاريخيّ عظيم. ولكن تأسيس معاهد أبحاث يعمل فيها عدّة علماء يهود لا ينطوي على جرأة أو عمل بطولي قومي بالمرّة. هؤلاء العلماء ليسوا ضمن ثمار حقلنا العلمي: هم متتلمذون في جامعات أجنبية وتتلمذوا على الأدب الأجنبي؛ جوهر حقيقة أنهم سيمارسون عملهم في القدس وليس في مدينة أخرى فيه الكثير من الراحة بالنسبة لنا، ولكن اختيار المكان لا يشكل حدثًا ذا أهمية ثقافية عالمية. والإثبات الأكبر على أن الجميع بدون استثناء يدركون الفرق الكبير يكمن بالذات في حقيقة أن منظمي الاحتفال خجلوا من كتابة الحقيقة في الدعوات ودعوا الضيوف إلى افتتاح "الجامعة". لقد أدركوا مسبقًا، مثل كل الناس الأذكياء، أنه لن يجهد أحد نفسه من أجل افتتاح مختبرات للبحث – من أجل عرض بائس – على حدّ تعبير "التايمز".

(ب)

لا يمكن بالطبع إخفاء هذا البديل عن أعين الأجانب الذين اجتمعوا. ولا يمكن بشكل خاص ذرّ الرمال في عيون مندوبي تلك الدول – مثل ليطا – التي نجحت قبل زمن وشيك في السير على درب كامل حقوقها الوطنية – الثقافية، وهي بالتالي تعرف من خلال ذاكرتها الطازجة ماذا تعني جامعة وطنية جديدة، وما هي الجهود الكبيرة المطلوبة لتأسيسها، وماهية الثورة التي تُحدثها في مجمل واقع وكيان الشعب. لقد تجمّع مندوبو هذه الدول الفتيّة – مثلهم مثل الجميع – لكي يحنوا رؤوسهم لزميلهم الأورشليمي، متوقعين أن يروا إنجازًا مماثلاً وعلى المستوى نفسه، ولو على نطاق أضيق في الوقت الحالي. وإقناعهم بأن مختبرين، وبدون كلّيات وبدون تدريس وبدون طلاّب هو "الشيء نفسه" (مثل الجامعة) هو حلم عبثيّ لا طائل منه.

نأمل أنهم "لن يثرثروا". إنه من المؤسف والمخجل أن تعتمد على "سابقة" تخطر على البال من دون قصد، ولكن ليس الذنب ذنبنا أنها تبدو لنا ملائمة جدًا: عندما ندعو شخصًا يزور معرضًا إلى أن يدخل جناح البهلوانيات لكي يرى حوتًا حيًّا، ولكننا نُريه عمليًّا حوتًا مزيّفًا من خشب، فهو عادة لا يحدّث أحدًا عن ذلك، إمّا بسبب عدم الارتياح إلى حقيقة أنه وقع في الفخ، أو بسبب طيبة القلب... دعنا نأمل ذلك! ولكن سيبقى في نفس الضيوف المحترمين شعور ليس له اسم سوى "الخديعة".

هذا الأمر خطير لأنه يتساوق مع لائحة الاتهام الأساسية التي يُبرزها ضدّنا – وكأنما هنا محادثات بينهم – كلّ أعداء الصهيونية. كلّ ذلك الجزء الهائل وذي التأثير الكبير في الصحافة الانجليزية الذي يطالب يوميًّا بإلغاء إعلان بلفور يستند في الأساس إلى أمر واحد: كأنما كل نجاحاتنا في مجال البناء في أرض إسرائيل هي عبارة عن برق كاذب، واستعراض لقرى بوتيومكين، وواجهة بناء بدون أساسات وحتى بدون سقف وأرضية. وهذا لا أساس له من الصحّة، ولكن ذلك صحيح في موضوع "الجامعة"، للأسف. وبما أنه جرى صرف الانتباه الكبير جدًا بالذات إلى "القرية البوتيومكينية"، فقد حصل أعداؤنا بذلك على تأكيد خطير جدًا لادّعاءاتهم المشتركة. من أجل ماذا؟ ومن يحتاج إلى ذلك؟ ألم يكن بالإمكان افتتاح معاهد البحث بدون هذه الضجة؟ مرّة أخرى، لا يظهر أمامنا مجرد طيش وتهوّر – نحن نواجه هنا ما هو أكثر تعقيدًا، نواجه ترابطًا يشمل الصبيانية المختلطة بالهستيريا، وتفاخرًا وفوضى وانعدام التربية السياسية وشهوة الشهرة. هذا مؤسف ومخجل.

الجانب الثاني في هذه المسألة هم العرب. ماذا ستكون نهاية مظاهرتنا – الأمر لا يزال غير معروف؛ يمكن أن تنتهي بالارتباك والحيرة؛ ولكن قد أصبح واضحًا ومعروفًا أننا أتحنا للعرب إمكانية إظهار رأيهم في الصهيونية علنًا وعلى رؤوس الأشهاد. لقد اتضح أن هذه المظاهرة ناجحة بشكل غير عادي. غياب النظام فيها يعزّز أثرها. "التايمز" نفسها التي كانت قد ندّدت بشدة بالعرب بسبب المقاطعة التي فرضوها على بلفور، تذكر الآن – بلهجة احترام صادقة – "اللباقة والحكمة الرسمية لدى القادة العرب، الذين بفضلهم مرّت أيام الغليان بهدوء". من

يريد ذلك؟ ومن أجل ماذا كنا بحاجة إلى ذلك؟ لقد كافحنا وسنظلّ نكافح ضد التنازلات للعرب في القضايا الجوهرية بالنسبة إلى الصهيونية – الهجرة، الأرض، الامتيازات، تركيب الإدارة، صورة الحكم وقوى الأمن، ولكننا لم نفكر أبدًا ولن نفكر مستقبلاً أن تنظيم التظاهرات الصاخبة – لها علاقة بأحداث هي جوهرية بالنسبة إلى الصهيونية – أمور تستحق أن نخاطر ونُغضب العرب. وقد احتجّ كاتب هذه السطور بشدّة في عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ ضد رفع الأعلام الزرقاء – البيضاء يوميًا وضد إنشاد نشيد "هتكفا" كل ساعة. أن نجتهد من أجل إحراز حقوقنا أمر مهم حتى لو أدى ذلك إلى التسبب بعدم الراحة للعرب، ولكن أن نقلع بفرحنا عيون شعب يخلو قلبه من الفرح ولا يمكن أن يكون في قلبه سرور وبهجة، دون أن تكون هناك ضرورة هو أمر مختلف كليًا. هذه ليست سياسة، هذا عمل هزليّ عديم الذوق وخطير أيضًا.

دعونا نوافق للحظة قصيرة على وجهة نظر خصومنا الصهاينة. فهم منذ سنتين يُقسمون وباستمرار عند كل مفترق طرق بأنه يوجد لنا "أصدقاء" في صفوف العرب. لنفترض أن هذا صحيح، وعليه فمن الطبيعي في هذه الحالة أن نستشير هؤلاء الأصدقاء: هل حقًا تعزّزت "المصالحة" إلى درجة أنه يمكن فتح الجروح القديمة وسط الألعاب النارية ومشاركة كاتب إعلان بلفور بنفسه؟ ألا يهدّد الاحتفال الصاخب جدًا بإثارة وإحياء مزاج وأجواء الأمس؟ إذا كان حقًا موجودًا في صفوف الأصدقاء العرب للصهيونية – غير المعروفين بالنسبة إلينا – شخص واحد مستقيم على الأقل، فإنه من المحتمل أن يكون جوابه على النحو التالي: نستحلفكم بالله ألاّ تثيروا ضجّة لا لزوم لها، ودعوا العرب يهدأون ويصالحون... لو استشرتم "الأصدقاء العرب" فلن يكون هناك جواب آخر. ولن يكون هناك أيضًا جواب آخر حتى لو استشرتم السكان اليهود القدامى في أرض إسرائيل، في حالة عدم وجود الأصدقاء العرب.

بأيّ إهمال مضطرب لا سابق له ولا يُغتفر يُدار كلّ مشروعنا، وسط الهتافات والتهليل والاستعراض! يسلّمون الوكالة الصهيونية للوجهاء المحترمين دون أن يسألوا هل يلتزم هؤلاء بالدفع مقابل الاحترام، وكم. وأمام مؤلف "الكتاب الأبيض" الذي تغاضى عن مجزرتين، والذي لم يتنازل عن مثقال ذرّة من خطّته، يتوسّلون لكي يستمرّ في الحكم – لأن المندوب السامي اليهودي يشكّل غطاءً مجديًا. يقنعون الانجليز بأن العرب يؤيّدوننا، وفي الوقت نفسه يعلمون جيدًا أن هذا الكذب يدحض ادّعاءنا الوحيد ضدّ تأسيس برلمان عربي. يدعون نصفي الكرة لاحتفال لا وجود له، دون أن يفكّروا في العواقب. عمومًا بدون تفكير، بدون خطة، بدون معرفة، بدون مسؤولية، بدون عجلة قيادة موجّهة وبدون ربّان، حسب نزوة الهستيريا الجماعية وتراث الجيتو.

هوامش

١– بوطيومكين، غريغوري الكسندروفيتش، كان عشيق القيصرة يكتيرينا الثانية، وقد عيّنته حاكم "روسيا الجديدة" – أقاليم البحر الأسود. وفي عام ١٧٨٧ زارت يكتيرينا المنطقة، وقد بنى قرىً وهميّة ليترك لديها الانطباع الحسن. ومن هنا جاء التعبير "قرى بوطيومكين" – أشياء لمجرّد الاستعراض.

٢– المقصود "الكتاب الأبيض" لتشرتشل من عام ١٩٢٢ الذي تجاهل الاستنتاجات المستخلصة من التمرّد والأحداث التي جرت في القدس عام ١٩٢٠، وفي يافا وعدّة أماكن أخرى في البلاد عام ١٩٢١.